كراسات المنتدى

Les Cahiers du FTDES

الكراس عدد 2

سوسيولوجيا الفعل الجماعي في تونس

منذ 14 جانفي 2011

تعدد طرف الإنخراط و تنوع أشكال الإحتجاج

جويلية 2019





منتصر بالله نغموشي كاتب مهتم بالشأن الاجتماعي وسينمائي هاوٍ

احتجاجات الفلاّحين في جندوبة:
الجرّار من الحقل الفلاحي إلى
الحقل³⁴³ الاحتجاجي، مقاربة
سوسيو-إتنوغرافيّة

ملخّص/Abstract

بعد الثورة، صارت الاحتجاجات والحركات الاحتجاجية أمرا واسع الانتشار في جلّ الولايات التونسية. جندوبة، ولاية فلاحية في الشمال الغربي، شهدت بين ديسمبر 2017 وديسمبر 2018 حركة احتجاجية منظمة وممنهجة قام بها الفلاحون بتأطير الاتحاد الجهوي للفلاحة والصيد البحري بجندوبة. هذه الاحتجاجات جلبت لنا آلية احتجاجية جديدة تنضاف للقاموس الاحتجاجي في تونس، حيث خرج الجرار من الحقل الزراعي إلى الحقل الاحتجاجي ومن الوسط الريفي إلى قلب المدينة بما تمثله من رمز للسلطة والمركزية في الولاية. هذه الورقة بحث في مفهوم الانخراط لدى الفلاحين، في رمزية الجرار وفي كيفية تأطيرهم للواقع.

After 2011, protests in Tunisia became a very common thing in all regions, **Jendouba**, an agricultural state in the north-west witnessed during the period between December 2017 and December 2018 a structured movement of peasants organized in a regional Agricultural Union, the movement brought to us a new mechanism of protesting, where we have witnessed the emergence of agricultural machines from the sawing field to the protesting field, and from the rural environment to the heart of the downtown of the city, this downtown that holds all the symbols of power and the institutes of state.

This paper is a dive-in in this movement and an analysis of it's symbolism.

"أنا أحكي قصة بالصورة .. الصورة متحركة .. لذلك أحركها" هوارد هوكس، مخرج سينمائي أمريكي

إنّ مخرج الأفلام الوثائقية عندما يقوم بوضع مادته السينمائية أمام الكاميرا، يصنع بصفة تلقائية إطارا لما ينقله، إطارا يحدد عبره وجهة نظر تحليلية كاملة يتبناها المخرج نفسه عمّا يصوره.

وإن كانت السينما قد غاصت منذ القديم في مفهوم الإطار سينمائيا (Erving Goffman) ، فإن سبعينات القرن الماضي وفّرت لنا عبر ارفينغ ڤوفمان (Erving Goffman) أداة تحليلية جديدة للظواهر الاجتماعية والفاعلين فيها ، إنها نظرية الأطر والتحليل الإطاري³⁴⁴ (framing theory and frame analysis) التي حوّلت ما يقوم به المخرج السينمائي عبر الكاميرا إلى أداة تحليل سوسيولوجية تمكننا بطريقة فعالة من تحديد ما تحمله الحركات الاجتماعية من أفكار وتربط بين أشكال الاحتجاج وآلياته وبين تأطير الفاعلين فيه لواقعهم وتفاعلاتهم معه.

لا يمكن لنا أن نمر بتمظهرات الفعل الجماعي في تونس بعد الثورة من دون ملاحظة تغيرات كبيرة في أشكال هذا الفعل، في الفاعلين أنفسهم وحتى في الإطار الذي تقوم فيه هذه التحركات، ولعل أجدّها احتجاجات الفلاحين في جندوبة في عدة مناسبات خلال شهر ديسمبر الفارط، التي لم تأخذ شكلا "معهودا" و "مألوفا" ، بل توصّمت بشكل واضح بطبع القائمين بها. احتجاجات الفلاحين في جندوبة جلبت لنا شكلا جديدا من الاحتجاج: مسيرة تجوب شوارع المدينة على أظهر الجرارات الزراعية .

-

³⁴⁴Frame Analysis: An Essay on the Organization of Experience, Erving Goffman

إن كانت الحادثة تمثل بالنسبة لكاميرا المخرج الموثق مادة سينمائية بامتياز 345، فهي بالتأكيد تمثل فرصة لمزيد فهم الفعل الجماعي في تونس بعد الثورة وأطره الجديدة من أطر اجتماعية سياسية عامة إلى الأطر الذهنية الخاصة بالفاعلين أنفسهم وكيفية قراءتهم لواقعهم المعيش وتحركهم فيه، وبالطبع فرصة لتسليط الضوء على أحد الفاعلين الجدد: الفلاحين، وذلك باعتماد مقاربة سوسيولوجية كيفية، تقوم على ملاحظة بالمشاركة في مسيرة يوم الأربعاء 19 ديسمبر 2018 وعدد من المقابلات نصف الموجهة مع فلاحين كانوا من الوجوه البارزة في التحركات المذكورة ومنضوين تحت لواء الفرع الجهوي لاتحاد الفلاحين بجندوبة.

تجد هذه الصفحات مكانها في هذا الكرّاس انطلاقا من كون الفعل الذي قام به الفلاحون في جندوبة في الشتاء الفارط، أي الاحتجاج مصحوبين بجراراتهم، هو شكل من أشكال الفعل الاحتجاجي الجديد وآليات الاحتجاج الجديدة، ومن كون المنظمة الداعية لهذا الفعل -أي اتحاد الفلاحين في ثوبه الجديد- ، من الفاعلين "الجدد" في الحقل الاحتجاجي التونسي .

مدخل إشكالي:

في كتابه "كيف صار التونسيّون تونسيّين"، يخصّص الهادي التيمومي³⁴⁶ فصلا كاملا للحديث عن الفترة الممتدة بين 1864 و 2014، هذا الفصل كان بعنوان "التّاجر الدّاهية والفلاّح الثائر". وللتوضيح، الاستشهاد بالكتاب هنا ليس لداعي استعمال أي من محتوياته، بل هو لترسيخ فكرة الفلاّح الثائر وكمرجع تاريخي، حيث سبق للكاتب نشر كتاب

³⁴⁵ الكاتب بصدد تصوير وثائقي حول هذه التحرّكات ما القائدي التيمومي هو مؤرخ وأستاذ جامعي تونسي

بعنوان "انتفاضات الفلاحين في تاريخ تونس المعاصر" وهو كتاب يتناول فيه المؤلف انتفاضة الفلاحين في الوسط الغربي التونسي سنة 1906.

في نشرية شهر ديسمبر 2018 ، وتَّق المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية عدد 359 حركة احتجاجية اجتماعية في ولاية جندوبة، منها 30 في شهر ديسمبر الفارط، الشهر الذي حدثت فيه المسيرات المذكورة.

وفيما استأثرت المؤسسة التربوية بجل هذه الاحتجاجات، حيث كانت في قلب الحركية الاحتجاجية في تلك الفترة نظرا للخلاف بين النقابة والوزارة، لم تغب الحركات الاحتجاجية التي يقف وراءها الفلاحون عن المشهد، حيث دعا الفرع الجهوي لاتحاد الفلاحين بجندوبة إلى مسيرات خلال شهر ديسمبر، سماها "يوم غضب."

أولى المسيرات كانت في 13 ديسمبر 2017 ، أي قبل سنة كاملة من المسيرات المذكورة، حيث أصدر الاتحاد بيانا يدعو فيه منظوريه إلى تنظيم مسيرة حاشدة، ولم يكن البيان الداعي لهذا الاحتجاج مفاجئا نظرا لأن بعض الفلاحين كانوا بالفعل معتصمين أمام الولاية منذ أول شهر ديسمبر 2017 تقريبا، بقدر ما كان محتواه مفاجئا، حيث دعا الاتحاد "كل الفلاحين رجالا ونساءً من كافة المعتمديات إلى المشاركة في يوم الغضب مصحوبين بآلاتهم وجراراتهم الفلاحية".

هذا البيان كان سابقًا لعدة بيانات لاحقة تتمحور كلها حول نقطتين: الدعوة ليوم غضب وإحضار الآلات الفلاحية وأحيانا حتى المواشي للمسيرات المدعوّ لها .

 تنظيم "يـوم غـضب" و ذلك يوم الأربعاء 13 / 12 / 2017 على
 الساعة العاشرة صباحا أمام خيمة الاعتصام تجوب الشارع الرئيسي لولاية جندوبة.

دعوة كل الفلاحين رجالا و نساءا من كافة المعتمديات الى المشاركة
 في يوم الغضب مصحوبين بآلاتهم و جراراتهم الفلاحية.

نقطتان من بيان صدر عن اتحاد الفلاحين بجندوبة في 9 ديسمبر 2017

ولئن تعددت التواريخ والبيانات ، فإن ما يجب استخلاصه من هذا المدخل الإشكالي هو أنّه على امتداد أكثر من سنة ، قام اتحاد الفلاحين والفلاحون عموما في جندوبة بالاحتجاج بطريقة منظمة وممنهجة ، حيث تواترت المسيرات أيّام الأربعاء بما يمثله هذا اليوم من رمزية في جندوبة حيث أنه يوم سوقها الأسبوعية، وتصبح هذه الاحتجاجات تقريبا أسبوعية خلال شهر ديسمبر (ديسمبر 2017 ، ديسمبر 2018) .

انطلاقا ممّا سبق ذكره ، فإن هذا المقال يتناول بصفة مباشرة موضوع احتجاج الفلاحين في جندوبة في أربعة عناصر تجلّت انطلاقا من العمل البحثي الميداني ومن ما تم استخلاصه من المقابلات مع الفلاحين والملاحظة بالمشاركة في مسيرة 19 ديسمبر 2018

العنصر الأوّل هو عنصر تعريفي نهدف منه لبناء إطار لهذه التحركات، نرسم من خلاله تغيّرات الإطار الاجتماعي والسياسي في تونس بعد الثورة بالنسبة لاتحاد الفلاحين. العنصر سيكون موجزا لكن مكثفا في مسح شامل وعام لتاريخ المنظمة، أو فكرة نقابة للفلاحين على الأقل، ثم سنتناول بصفة خاصة تغيّر مفهوم الانخراط لدى الفلاح بعد الثورة.

بالنسبة للعنصر الثاني، فهو عنصر يجيب عن سؤال "لماذا يحتج الفلاحون؟"

إنّ امتداد هذه الاحتجاجات على مدى سنتين بصفة ممنهجة ومكثفة وبآليات مختلفة ومتجددة

يضفي على محرّكاتها وأسبابها أهمية كبيرة نظرا لأن مدى انخراط الفاعلين فيها مرتبط أساسا بشعور موحّد بالخطر الجماعي ووعي مشترك بمشاكل القطاع.

أما العنصر الثالث فسنجيب فيه عن أسئلة كيفيّة: كيف يحتج الفلاّحون؟ كيف تم إيجاد صيغة الاحتجاج "المميّزة" تلك حسب إفادات الفلاحين الذين يفرقون في إجاباتهم بالفعل

بين "احتجاج عادي" و "احتجاج مميّز" ؟ كيف يمكن رسم الخط الفاصل بين هذين النوعين من الاحتجاج انطلاقا من المخيال الجماعي للفلاحين؟

هذا العنصر يهدف لتوصيف هذه الاحتجاجات وآلياتها ومزيد فهم حدوثها بتلك الكيفية انطلاقا من تحليل لأطر الفلاحين ومخيالهم الجماعي.

بالنسبة للعنصر الأخير، فهو عنصر فرضه الميدان، حيث تجدر الإشارة إلى أن أحد المقابلات مع أحد أعضاء الاتحاد، تمت قرب خيمة اعتصام، وهو اعتصام دخلت فيه العديد من مكوّنات المجتمع المدني والمنظّمات في جندوبة منذ قرابة الشهر، تحت راية حملة سمّيت بـ"جندوبة تريد تنمية حقيقية"، وتجدر الإشارة أيضا إلى أن مسيرات اتحاد الفلاحين المنصرمة لم تخلُ من مساندة منظمات أخرى بالجهة على غرار اتحاد أصحاب الشهادات المعطلين عن العمل بجندوبة، هذا العنصر هو عنصر يجيب عن مدى انخراط الفلاحين في الحركات الاحتجاجية الأخرى بولاية جندوبة.

مدخل منهجی:

إنّ كاتب هذه السطور ليس بغريب عن الفلاحين في جندوبة وعن هياكل القطاع ومنظماته، حيث يرجع أصله لعائلة من الفلاحين الرئيسيين في الجهة وسبق لجدّه أن تولّى منصب رئيس التعاضدية بجندوبة.

هذا الرأسمال العلائقي سهّل الوصول للفلاحين المعنيين بالأمر وقيادات الاتحاد الجهوي بجندوبة، وإن لم تطرح مشاكل وصعوبات في العمل الميداني نفسه، فإن التوثيق كان صعبا (تسجيل، تصوير، تنقل) نظرا لتهرّي المسالك الفلاحية بالجهة وللقيام بالمقابلات في ظروف فرضها النشاط اليومي للفلاّحين بالجهة بين الحقل والاعتصام.

المصادر التاريخية المعتمدة في هذا المقال هي الوثائق المنشورة في موقع الاتحاد الرسمي والكلام المنقول شفويا عن بعض الفلاحين المسنين بالجهة.

للإجابة عن العنصر الثاني "لماذا يحتج الفلاحون؟" تمت دراسة الواقع الموضوعي الذي يمكن من خلاله تفسير احتجاجات الفلاحين وطريقة استبطان الفلاحين لهذا الواقع وتعاملهم معه من خلال الاحتجاج، هذا العنصر نجيب عنه من خلال دراسة البيانات التي يصدرها الاتحاد ومقاربة إثنوغرافية لمزيد فهم استبطان الفلاحين لمشاكل الجهة والقطاع. بالنسبة للعنصر الثالث "كيف يحتج الفلاحون؟" فقد تم اعتماد الملاحظة بالمشاركة كطريقة لبناء مشهد الاحتجاج ورسم أطره.

أمّا العنصر الأخير، فقد اعتمدت في بلورته على الملاحظة والمتابعة للمعتصمين منذ غرة جانفي أمام الولاية على وسائل التواصل الاجتماعي وعلى المقابلات معهم.

عناصر سياقية:

- 1. المسيرات والاعتصامات التي نفذها الفلاحون كانت كلها في شارع النخيل، وهو شارع رئيسي في جندوبة يحتوي على العديد من المرافق العمومية ومنشآت السيادة مثل الولاية، القباضة، إقليم الحرس الوطني، إقليم الشرطة، محكمة الناحية، المحكمة الابتدائية.
 - 2. كل المسيرات تم القيام بها صباح يوم أربعاء، يوم الأربعاء هو يوم السوق الأسبوعية بالولاية وهو أكثر يوم يزدحم فيه الشارع المذكور.
- المقابلات تم إجراؤها في بداية مارس وفي منتصفه، المسيرة التي شاركت فيها كانت بتاريخ 19 ديسمبر 2018، هذا العمل امتد على فترة 3 أشهر تقريبا كان فيها الفلاحون ينظمون تحركات دورية ومنظمة، والبعض منهم كان مشاركا في تحركات

أخرى أبرزها حملة "جندوبة تريد تنمية حقيقية" التي بدأت في 1 جانفي 2019 ومازالت متواصلة لحد كتابة هذه السطور.

ا. اتحاد الفلاحين والإطار الاحتجاجي بعد الثورة: إعادة هيكلة كاملة للاتحاد

لمحة تاريخية موجزة 347

إنّ وجود هيكل ينظم القطاع الفلاحي في تونس يعود لقرابة المائة سنة، حيث تم في 1920 تكوين شكل من النقابة تحت مسمى "الحجرة الشورية الأهلية للمصالح الفلاحية بشمال المملكة التونسية " لعبت دور الوسيط بين كبار الفلاحين في الشمال التونسي والمستعمر الفرنسي، وقد ترأس هذه المنظمة الطاهر بن عمار.

وبينما كانت أولى المنظمات النقابية الفلاحية تضم فلاحي الشمال التونسي أساسا (جندوبة، باجة، تونس) بدأت أولى النقابات في الظهور في الجنوب والساحل في منتصف الثلاثينيات، حيث تأسست سنة 1936 "نقابة الفلاحين التونسيين بالجنوب" وفي سنة 1937 "جمعية الفلاحين التونسيين" التي تضم أغلب النقابات الفلاحية بالساحل. سنة 1945، أعيد تأسيس جمعية الفلاحين التونسيين التي ترأسها على بلحاج وكانت بمثابة هيكل قيادي أعلى لكل الجمعيات الفلاحية بالبلاد وذلك في نطاق توحيد العمل النقابي الفلاحي.

وشهدت السنوات اللاحقة ميلاد العديد من" المنظمات الأخرى مثل "اتحاد القطر التونسي للجامعة العامة للفلاحين" و"الجامعة العامة للفلاحة التونسية".

³⁴⁷ المصدر: الموقع الرسمي للاتحاد التونسي للفلاحة والصيد البحري

في عام 1955 تفاقم الصراع اليوسفي البورقيبي مما أدى إلى انقسام الفلاحين إلى شقين: شق يوسفي حافظ على تسمية الاتحاد العام للفلاحة التونسية وشق بورقيبي ويمثله الاتحاد القومى للمزارعين التونسيين.

ونظرا لصعود القوى البورقيبية للحكم تم اعتماد تسمية الاتحاد القومي للمزارعين التونسيين بشكل رسمي واعتباره المحاور الوحيد للسلطات العامة باسم الفلاحين . بعد الاستقلال اتخذ هذا الهيكل النقابي عديد المسميات مواكبة لتوجهات الحكومات المتعاقبة حتى سنة 1992 حيث اتخذ تسميته الحالية وهي "الاتحاد التونسي للفلاحة والصيد البحري".

هذه النبذة الموجزة لتاريخ الاتحاد ومدى قدرته على مسايرة توجهات الحكومات لا يدل سوى على مدى ارتهان اتحاد الفلاحين للسلطة، ومدى تبعيته للحزب الحاكم قبل الثورة. في المقابلات نصف الموجهة ، عندما تم طرح سؤال مدى استقلالية الاتحاد قبل الثورة، أكد الفلاحون أن الاتحاد كان بالفعل خاضعا كليا للحزب الحاكم، منعدم التحركات والانخراط فيه كان محدودا، وبالفعل كل الفلاحين الذين أجريت معهم المقابلات انخرطوا في الاتحاد بعد الثورة، وتجدر الإشارة إلى أن أحدهم هو نائب رئيس الفرع الجهوي للاتحاد في جندوبة.

2. الثورة والإطار الاحتجاجي الجديد: تغيّر مفهوم الانخراط 348 لدى الفلاح

"الاتحاد كان خاضعا لسياسة سابقة، كان الاتحاد تابعا للحزب الحاكم وبالتالي الانخراط فيه كان محدودا ومنعدم التحركات. بعد الثورة صارت العديد من التجاذبات ووضع الاتحاد نفسه على سكة جديدة حيث صار له هيئة منتخبة بحق من الفلاحين وهو الآن في مسار صحيح وسياسة جديدة أقرب من الفلاح ومصالحه."

³⁴⁸ نتحدث هنا عن طريقة فهم الفلاح لانخراطه في إتحاد الفلاحين و ما يمثله هذا الإتحاد في مخيال الفلاح. هذه العلاقة ستكون مدخلا لفهم مدى انخراط الفلاحين و أشكاله.

يحدثنا هنا فريد العبيدي، نائب رئيس الاتحاد الجهوي للفلاحين بجندوبة، في إجابة عن سؤال ماذا غيّرت الثورة في الفلاح وفي اتحاد الفلاحين، ويسترسل:

"التغيير الذي جاء مع الثورة جلب إطارا جديدا، إطارا يمكن فيه الاحتجاج وفيه تصورات جديدة وتوقعات أكثر، لم تكن موجودة قبل الثورة".

فترة ما بعد الثورة كانت فترة استرداد كرامة، حيث تم استرجاع المنظمات والنقابات والجمعيات من سطوة الحزب الحاكم وأذرعته العديدة، ولم يتخلف الفلاحون عن ركب المواطنين التونسيين الذّين اقتحموا هياكل منظمات كانت مغلقة أمامهم في السابق وتحتكر على المنتسبين لحزب التجمع، لكن الذي تغيّر بحق بعد الثورة هو مفهوم الانخراط لدى الفلاح نفسه.

"قبل الثورة، الانخراط لم يكن يعني الكثير، أغلب من انخرطوا في الاتحاد قاموا بذلك فقط للتمتع بالعلف المدعم وبعض المواد التي تمنحها الدولة، الانخراط لم يكن يعني الاعتناء بمشاغل القطاع والفلاحين. "

يقول م.ع، فلاح شاب من جندوبة، موضحا منذ بداية المقابلة أنّه لم ينخرط في الاتحاد سابقا نظرا للتوجه السياسي للاتحاد: "معروف، مثل كل المنظمات، تابع للسلطة. " والحقّ أنّه تمّ التماس تغيّر واضح في هذا المفهوم بالنسبة لفلاحي الجهة، حيث في جلّ المقابلات عند طرح أي سؤال يتعلق بالانخراط بدا أغلب الفلاحين تقريبا متحمسين للدفاع عن فكرة نقابة تمثّل القطاع وتذود عن مصالحهم، وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك نوعا من اللحمة بين فلاحي الجهة والشعور المشترك بالتهميش والإقصاء، شعور يجعل أغلب الفلاحين يتحدثون عن الإهمال العمد للنشاط الفلاحي وعن عدم رعاية الدولة لمصالح فلاحيها في حين تتجه سياساتها لفتح الباب أمام منتوجات فلاحي الاتحاد الأوروبي والخارج.

فإن كانت المشاكل التي يواجهها فلاّحو الولاية ليست بالجديدة بما هي مشاكل متجذرة في القطاع الذي تم إهماله بحق منذ انتهاء التجربة التعاضدية، فإنّ نزعة الفلاحين إلى التحرك الجماعي والانخراط التام لهؤلاء في كل التحركات هو أمر طارئ وجديد.

هذا التغيّر في مفهوم الانخراط، وتقريب المواطنين من الشأن العام وفتح باب إبداء الرأي والنقاش، جعل من الثورة مياه غيث ينتظرها الفلاحون، حيث خلق الوضع بعد الثورة أرضية خصبة للفلاحين ولاتحاد الفلاحين الذي أعاد هيكلة نفسه ورسم لنفسه أهدافا جديدة لمزيد التقرب من الفلاح.

نقلا عن نائب رئيس الاتحاد الجهوي في جندوبة، عدد المنخرطين يتراوح بين الخمسة (5) والستة (6) آلاف، وهو ما يمثّل نسبة ضئيلة من العدد الحقيقي للفلاحين ومتعاطي النشاط الفلاحي بجهة فلاحية بامتياز، ومن الأهداف التي رسمتها الهيئة الجديدة للاتحاد العمل على مزيد تشريك الفلاحين ورفع عدد المنخرطين بالولاية.

"من أهداف الهيئة الجديدة العمل على رفع عدد المنضوين تحت لواء الاتحاد حتى الـ20 ألف، وعلى مزيد تنظيم القطاع وهيكلته، وقمنا مؤخرا بإصدار بطاقات مهنية مثل هذه (قام بسحب بطاقته من محفظته)، يمكنك تصويرها ".

تجدر الإضافة أن الثورة رفعت سقف الانتظارات بالنسبة للفلاح الذي يجيب عن سؤال ماذا تغيّر بعد الثورة ب

"بعد الثورة ومكسب الحرية والقدرة على التعبير عن الرأي ، اعتقدنا أننا سنتحرّر وسنأخذ حقوقنا، لكن العجيب أنه تم تهميشنا أكثر!."

حيث الإطار العام بعد الثورة بما هو إطار خلاق جعل من الفلاح ينتظر أكثر من الدولة ومن نقابته نفسها، فإن كان انخراط الفلاح سابقا في اتحاد الفلاحين انخراطا شكليا يخلو من أي عمل نقابي احتجاجي ولا يعدو كونه طريقة للحصول على بعض الامتيازات البسيطة مثل العلف المدعم، فشكل الانخراط الذي نلمسه حاليا لدى فلاحي جندوبة المنتمين للاتحاد هو انخراط نابع من انتظارات الفلاحين لمزيد من الالتفات للقطاع وتطويره وشكل من أشكال الالتفاف حول منظمة تسعى للدفاع عن مصالح منظوريها وقطاعها.

الماذا يحتج الفلاّحون ؟

"منذ الاستقلال وانتهاء التجربة التعاضدية، توجهت سياسة الدولة من دعم الفلاحة إلى دعم السياحة ومجالات أخرى والتخلي عن الفلاحة وعدم اعتبارها ركيزة لاقتصاد البلاد." يقول أحد الفلاحين، إن الشعور المشترك بتهميش الدولة يطغى هنا في جندوبة على جل المحادثات الثنائية والجماعية بين الفلاحين من مختلف الأعمار والتوجهات السياسية، حيث يربط الفلاح دائما بين صعوبات القطاع المتعددة، وتواطؤ الدولة وسياستها الممنهجة لضرب قطاع الفلاحة.

نظرا لتعدد النقاط المطروحة في البيانات الاحتجاجية التي يصدرها فلاحو الجهة، سنكتفي في هذا العنصر بذكر أهم العناصر التي ساقها الفلاحون في المقابلات نصف الموجهة.

1. دعم مواد الإنتاج الفلاحي

عبّر كل الفلاحين في المسيرات وفي الاعتصامات وبشكل مفصّل في المقابلات نصف الموجهة عن فشل سياسة دعم الإنتاج الفلاحي الذي تنتهجها الدولة.

بالنسبة للفلاح، المبالغ المخصصة للدعم لا تتجه للفلاح بل تتجه لأطراف أخرى مثل مراكز تجميع الحليب.

وكان لمسألة علف الأبقار المدعم نصيب الأسد من تشكيات الفلاحين، حيث سبق لفلاحي وكان لمسألة علف الأبقار المدعم نصيب الأسد من تشكيات الفلاحين، حيث بعض ولاية جندوبة في 2017 الاحتجاج بشكل خاص على مصاعب إنتاج الحليب بسكب بعض من إنتاجهم اليومي للحليب أمام الولاية.

"الفلاح يتعب على إنتاجه ثم يبيعه بسعر 890 مليم لمراكز تجميع الحليب، هذا السعر لا يغطي مصاريف الإنتاج بالنسبة للفلاح، والغريب أن الدعم لا يعطى للفلاح بل يعطى لمراكز التجميع" يقول فريد العبيدي.

أما أحد الفلاحين المعتصمين أمام الولاية في إطار حملة "جندوبة تريد تنمية حقيقية³⁴⁹"، فيضيف:

"المشكل ليس في الدعم، المشكل مثلا أن المواد المدعمة نفسها مثل مادة "السداري" (علف للأبقار) هي مواد غير متوفرة بصفة كافية ولا تلبي احتياجات الفلاحين كلهم، والكميات التي يوفرها لنا اتحاد الفلاحين كوسيط شراء هذه المادة المدعمة لا تكاد تكفينا، هذا المشكل يرجع بالأساس إلى غياب الصناعات التحويلية في ولاية جندوبة، مثلما كنا نناقش في الاعتصام اليوم، ولاية جندوبة فيها 170 ألف هكتار صالح للزراعة ورغم هذه المساحات الشاسعة والإنتاج الوفير، كل ما ينتج هنا يحوّل في مناطق أخرى خاصة القمح الصلب الذي تصنع منه مادة السداري، وعلاوة على هذا كله لا تتوفر لجندوبة الحصة الكافية من هذه المادة المدعمة".

من مشاكل الدعم الأخرى، أنّ الأسعار محرّرة من جهة المزود والفلاح فقط، حيث يشتري الفلاح الأغراس والمشاتل والعلف والنباتات والبذور (مثال بطاطا، فلفل، طماطم) بأسعار مختلفة يحددها المزودون عملا بمبدأ العرض والطلب، بينما في السوق بعد أن يتمّ الإنتاج يجد الفلاح نفسه مقيدا بأسعار تحددها الدولة دون مراعاة لأسعار ما قبل الإنتاج التي تكبدها لوحده.

2. بنية تحتية كارثية

الانقطاع المتواصل لمياه الري، في السنوات الأخيرة صار مشكلا عويصا حيث الصّابة صارت تتلف دائما جراء هذه الانقطاعات.

279

³⁴⁹ هو شعار حركة احتجاجية بدأت منذ جانفي الفارط في جندوبة، و هي حركة اجتماعية تجمع كافة أطياف المجتمع المدني في جندوبة والنقابات والمنظمات و الجمعيات في مطالبة بالالتفات لمشاكل الجهة والمسارعة في إيجاد حلول.

"رغم الكمية الهائلة من المياه في جندوبة التي تتوفر فيها أكبر طبقة مائية في البلاد التونسية مثل ما يعرف الجميع، 5 سدود، 40 بحيرة جبلية، طبقة مائية تمسح 703 مليون متر كبّة، فإنّ من الغريب أن تواجهنا هذه المشاكل في جندوبة ." شبكة مياه الري في تونس يعود تاريخها لبداية السبعينات، المناطق السقوية في تونس صارت تعني من تهري هذه الشبكة التي صارت تضيع نسبة كبيرة من المياه قبل أن تصل للفلاح، الفلاح الذي يجد نفسه مطالبا بتسديد أثمان باهظة لقاء الماء "ما يزيد المشاكل هو الفوترة وما ندفعه كفلاحين مقابل المياه، إذ أن أغلبية الفواتير هي فواتير تقديرية حتى في سنوات الجفاف التي ينقطع فيها الماء دائما ندفع نفس الكمية." يقول أحد الفلاحين "م.ر"، ثم يستطرد محدثا عن بقية مشاكل البنية التحتية، من طرقات غير صالحة للاستعمال، لعزلة الفلاحين في المناطق النائية التي تجبرهم على بيع منتوجاتهم للوسطاء وذلك لتجنب عناء التنقل للأسواق واستحالته أحيانا.

.اااكيف يحتج الفلاحون؟

" بالنسبة للاحتجاج، نحن في اتحاد الفلاحين رأينا أن المسيرات التقليدية والاعتصامات العادية صارت أمرا مألوفا منذ الثورة، أمرا يمر عليه الجميع مرور الكرام، لذلك أردنا التميز وإضفاء طابع جديد ،ما الذي يميزنا نحن كفلاحين؟

إنها جراراتنا وأبقارنا، لذلك دعونا إلى جلب ما يميزنا كفلاحين إلى الشارع والاحتجاج بواسطته. المسيرة الأولى كانت بالجرارات، في المسيرة الثانية أحضرنا جراراتنا وأبقارنا، وإذا تواصل الأمر هكذا فسنحضر بقية مواشينا من أغنام وأشياء أخرى جديدة فالاحتجاج حق مشروع"

يقول نائب رئيس الاتحاد بجندوبة، في توصيفه لطريقة الاحتجاج لدى الفلاح ولمدى ارتباط هذا الأخير بوسائل عيشه ومهنته، بالنسبة للفلاحين، آلية الاحتجاج المستعملة،

أي استعمال الآلات الفلاحية والمواشي، تتعدى مجرّد البحث عن التميّز إلى إطار ذهني كامل: كيف يتصوّر الفلاح الاحتجاج؟

عند طرح نفس السؤال على أغلب الفلاحين "لماذا اخترتم الاحتجاج بتلك الطريقة؟"، نجد شبه توافق أو إجماع مستقى من ذهنية مشتركة ومن مخيال جماعي بنته المهنة والوضعية المشتركة للفلاحين في جندوبة، حيث أجمع كل الفلاحين على أنّ الاحتجاج لابد أن يكون "متميزا" ، أي أن يدلّ هذا الاحتجاج على هوية القائمين به وعلى مشاكلهم بطريقتهم.

هذا التمييز الواعي، و اللآواعي أحيانا، بين احتجاج "عادي" واحتجاج "مميّز" هو منطلق لمزيد فهم الإطار الذي نبعت منه هذه الآليات الاحتجاجية، حيث لا نعتبر مثلا إحضار المواشي والخروج في مسيرة على متن الجرارات مجرّد طريقة للتميز بقدر ما نعتبرها آلية احتجاج نابعة بصدق من تصوّر الفلاح للاحتجاج ولإجابته على سؤال "كيف أحتجّ؟"

1. في رمزية الجرّار

الجرّار بما هو آلة زراعية ضخمة الحجم، بصخبه وبملئه للشارع بطريقة نوعية قبل أن تكون كيفية، حيث أنّ بضع جرّارات أكثر من كافية لملء الشارع بينما قد يعجز مئات الفلاحين المترجلين على القيام بذلك، هو وسيلة ضغط ووسيلة خلق.

هو وسيلة ضغط على السلطة، حيث لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تمرّ مسيرة تضم عشرات من الجرارات الهادرة مرور الكرام من أمام الولاية بما تمثله من مركز سلطة في جندوبة، والأكثر أن مسيرة تتقدمها الجرارات لا يمكن وقف تقدّمها باستعمال وسائل بوليسية تقليدية كوضع حاجز أمني.

وهو وسيلة خلق، حيث لم ينجح الجرار فقط في ملء الفضاء العام في جندوبة، بل تمكن من خلق رأي عام في المقاهي والجلسات الجماعية بما هو موضوع مطروح للنقاش وللتعاطف في أغلب الحالات نظرا لرمزية الفلاح ومهنته في جندوبة.

إنّ دخول الجرارات للحقل الاحتجاجي مثّل نقلة نوعية في آليات الاحتجاج بالجهة ومدى فاعليته، الجرّار وسيلة إنتاج تعبّر عن هوية مهنية محددة، أي الفلاحين بما هم منتجون، هو دخيل على الوسط الحضري³⁵⁰ أساسا. هو دخيل على الوسط الحضري³⁵⁰ أساسا. بالعودة للمقابلات، نجد أن الفلاحين يعتبرون الجرار جزءًا من هويتهم الاجتماعية، حيث صار مكوّنا لهوية الفلاح وبالتالي محدّدا لإطاره التحليلي ولطريقة تصوره للحركية الاحتجاجية الدؤوبة³⁵¹، في إحدى المقابلات، يجيب أحد الفلاحين بطريقة بديهية عن سؤال "لماذا اخترتم استعمال الجرارات؟" مباشرة بـ" ماذا تريدنا أن نستعمل؟ نحن فلاحون."

هذه البداهة في التمييز بين احتجاج "عادي" واحتجاج "مميز" أولا وفي ربط الاحتجاج المميّز بالجرار بما هو مكون هوية اجتماعية مهنية ثانيا، هو مدخل لمزيد فهم الأطر التي خلقت هذه الحركية الاحتجاجية وطريقة قولبتها على تلك الطريقة، الجرار هنا رمز ينقلنا من مشاهد احتجاج ذات آليات جديدة وفاعلين جدد في الحقل الاحتجاجي إلى تحليل إطاري يغوص في رمزية هذا الجرار لدى الفلاحين بما هم مجموعة ذات صفات مشتركة وتحمل همّا ومشاكل مشتركة.

2. احتجاج عادي، احتجاج مميّز

8 سنوات من الثورة، عشرات من المسيرات، مئات من حالات الاحتجاج الجماعي، آلاف من حالات الاحتجاج الفردي، على امتداد هاته السنوات كانت الحركات الاحتجاجية تملأ

³⁵⁰ المسير ات تمت في وسط مدينة جندوبة

³⁵¹ هناك تواصل على مدى أكثر من عام لهذه الآلية الاحتجاجية ، ما يجعلها آلية غير طارئة

الفضاء العام التونسي من الشوارع والمقاهي إلى وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة وصولا إلى وسائل التواصل الاجتماعي. ولا يكاد يمرّ يوم على المواطن التونسي العادي، دون أن يسمع عن تحرك احتجاجي في أحد ربوع البلاد.

الفلاحون لا يختلفون كثيرا عن بقية المواطنين، تلك الفسحة من الزمن التي يخصصها الفلاح بعد يوم طويل من العمل ليجلس في مقهى أو أمام تلفازه، لا تخلو من هذه الأخبار، هذا مدخل لمزيد فهم هذا التعبير: "احتجاج عادي".

صارت ذهنية المواطن التونسي قابلة لجل أنواع التحركات، تحركات يعتبرها المواطن عادية، ربما يختلف النوع الذي تندرج فيه الاحتجاجات التي يعتبرها التونسي عادية من مواطن إلى آخر، لكن بالنسبة للفلاحين في جندوبة، لا يوجد أي تصنيف أو طيف يمكن أن تصنف ضمنه تحركاتهم.

"نحن بحثنا عن التميز لكي يسمع صوتنا، الاحتجاج بطرق جديدة هو طريقة لتفرض بها وجودك وتجعل الإعلام يتكلم عنك" يقول س.ج ، فلاح شاب آخر من جندوبة، في حديثه عن الاحتجاج، نجد أنّ هناك توافقا بين الفلاحين في جلساتهم المصغرة أثناء التخطيط للتحرك، بمعنى أن أيّ تحرك يجب أن يخرج عمّا هو متعارف عليه وما هو عادي، عندما سألت عن كيفية التوافق لاختيار طريقة الاحتجاج، الإجابة كانت بالإجماع: أثناء المناقشات صلب اتحاد الفلاحين وقبل كتابة البيانات، فكرة إيصال الأصوات وجعل الاحتجاج أمرا يتداول وخلق رأي عام حوله كانت دائما هاجسا، أغلب المتناقشين كانوا يبدون خوفا من مرور الاحتجاج إلى خانة العادي واليومي بما معناه أنه يفقد رمزيته، إنّه البحث عن الرمزية وإضفاؤها على التحركات التي لعبت دور المحرك والمؤجج لهذه الاحتجاجات طيلة السنتين تقريبا، وهو ما خلق نوعا من الوعي المشترك والجماعي بين الفلاحين مما ساهم في انخراطهم الكامل في هذا الاحتجاج واستعدادهم الكامل لدعمه وخلق آلياته.

. ٧ الفلاحون والحركات الاحتجاجية الأخرى بجندوبة

هذا العنصر هو عنصر يجيب عن مدى انخراط الفلاحين في جندوبة في مرحلة أولى، وعن مدى تشابك الحركات الاحتجاجية بجندوبة في مرحلة ثانية.

تمت إحدى المقابلات في مارس الفارط مع فلاح منخرط في اتحاد الفلاحين، وهو مرابض في خيمة اعتصام "جندوبة تريد تنمية حقيقية".

لئن كان المقال في بداية كتابته لا يتطرق لهذه الحملة ولا لهذا العنصر، فإن الاعتصام الذي انطلق في غرّة جانفي الفارط والجامع لأطياف عديدة من المنظمات والجمعيات والنقابات الجهوية بولاية جندوبة هو بحق تعبيرة عن التقاء الحركات الاحتجاجية بالجهة.

مكونات هذا الاعتصام على اختلافها، تحمل همّا مشتركا بمشاغل الجهة نلمسه من خلال المقابلات والبيانات ونشاطات المعتصمين على وسائل التواصل الاجتماعي.

1. انخراط الفلاحين في الحركات الأخرى

في بداية تحركات الفلاحين في ديسمبر 2018، لم تكن بيانات المساندة تصدر فقط عن الاتحادات الجهوية الأخرى لاتحاد الفلاحة، بل كانت تصدر أيضا عن المكتب الجهوي لاتحاد أصحاب الشهائد العليا المعطلين عن العمل، الذي وجدنا انخراط عديد من أعضائه في التحركات والمسيرات في الجهة.

مقابل هذا الدعم والانخراط، نجد أيضا انخراطا متبادلا من الفلاحين والاتحاد الجهوي للفلاحين بجندوبة في الحركات الأخرى في الجهة، هذا الانخراط يحمل في طياته شعورا مشتركا بين الفلاحين وبقية الناشطين في جندوبة.

في اعتصام "جندوبة تريد تنمية حقيقية"، التقينا بـ "م.ع"، الذي كان في موقعين احتجاجين مختلفين: الأول احتجاج تحت "اتحاد الفلاحين"، يعنى بمشاكل القطاع الفلاحي والصعوبات التي يتعرض لها الفلاحون في جندوبة، والثاني هو اعتصام يعنى

بمشاكل الجهة بصفة عامة، اعتصام يطالب بالتنمية وبتفعيل التمييز الإيجابي والبحث عن حلول جدية للجهة.

والحق أن بقية الفلاحين رغم عدم مشاركتهم في الاعتصام بطريقة مباشرة، هم مساندون للتحرك وحالمون بالآفاق التي يفتحها هذا الاعتصام للجهة ككل.

تحركات الفلاحين في جندوبة قد تبدو حاملة لمشاكل الجهة والقطاع، أي أنها جهوية قطاعية، لكنها تحمل في طياتها أفق تشبيك والتقاء مع بقية الحركات الاحتجاجيه بالجهة والبلاد نظرا لأن مطالب الفلاحين تقع دائما في سقف انتظارات المواطن البسيط و"قفته المرتبطة بإنتاج فلاحى بلاده" حسب أحد الفلاحين.

2. جندوبة تريد تنمية حقيقية: التقاء الحركات الاحتجاجية

الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان بجندوبة، نقابة قوات الأمن بجندوبة، الاتحاد العام لطلبة تونس بجندوبة، الاتحاد الجهوي للفلاحين بجندوبة، -ذكرا لاحصرا-، مع العشرات من الجمعيات والمنظمات الأخرى بالجهة ، لم تتخلف أي من مكونات المجتمع المدني في الولاية عن دعم هذا الاعتصام والمشاركة في المسيرات التي ينظمها تحت عنوان "أربعاء الغضب"، هاته الحملة التي اتخذت شعارا لها خريطة ولاية جندوبة، لتنوء عن كل التجاذبات السياسية والاجتماعية ولتكون بحق جبهة احتجاجية موحدة تجمع كل أطياف المجتمع بالولاية.

في مارس الفارط، مررت بالمرابطين في خيمة الاعتصام، وقّعتُ على العريضة الاحتجاجية، ولم تفتني ملاحظة البعض من الأسماء المرفقة بالمهن والصفة، أساتذة، فلاحون، مهنيون، سواق تاكسي، طلبة، معطلون عن العمل، فنانون، العريضة التي وصلت إلى أكثر من خمسة (5) آلاف توقيع هي دليل ومرجع إحصائي يعبّر بصدق عن مدى تشابك والتقاء الاحتجاجات بولاية جندوية.

خلال سنة 2018، لم يغب المعطلون عن العمل عن الحقل الاحتجاجي في جندوبة، كذلك لم يتخلف سواق التاكسي والنقل عن التحرك و أيضا العديد من الاعتصامات المتفرقة وحركات غلق الطريق مطالبة مثلا بالتشغيل أو الحق في الماء الصالح للشراب وغيرها، منذ بداية 2019، أي بداية الاعتصام، كل هذه الأطراف تغيبت عن الساحة في شكلها المشتت لتعود في شكل موحد وجامع لجل الطلبات، فالحق في التشغيل وتحسين البنية التحتية والماء الصالح للشراب وتحسين القطاع الفلاجي، كلها وضعت تحت سقف مشترك لا يتجزأ يطالب بحلول جماعية ومشتركة ليس لقطاعات بعينها بل للجهة ككلّ.

خاتمة

ما قام به فلاحو جندوبة على امتداد سنتين من احتجاج خلاق ومجدد لآليات الاحتجاج وجد طريقه في هذا الكراس نظرا لأنه امتداد فعلي للحراك الثوري في تونس ولبحث الفاعلين عن رمزية جديدة للاحتجاجات والحركات الاحتجاجية.

بمجرد دخول الجرارات بما هي وسائل إنتاج إلى الاحتجاج وتحولها إلى وسيلة احتجاج صرنا نبحث عن تفسيرات اجتماعية للأطر التي يحلل من داخلها الفاعلون واقعهم ويتعاطون معه.

إن تحركات الفلاحين ونجاحهم في خلق آلية احتجاج جديدة تدفع بوسائل الإنتاج من الحقل الزراعي إلى الحقل الاحتجاجي، هو بحق نقلة نوعية للحركات الاحتجاجية بالجهة وبالبلاد، بالنسبة لولاية جندوبة على الأقل، أفق التقاء وتشابك الحركات الاجتماعية الاحتجاجية يتم بلورته في حملة "جندوبة تريد تنمية حقيقية"، لقد تغلب الشعور الجماعي بالتهميش والإقصاء على كل الخلافات التي تعرفها القطاعات والمهن في الجهة، فهل صار يمكننا الحديث عن اختفاء للسكترية بشكلها النقابي والاجتماعي في الولاية؟

ما الذي يجمع فسيفساء تشتتت قطعها لكنها في نظر بحوث علميّة تراها ملتئمة ومجمّعة ومتناسقة؟ كيف لبحوث مُماثلة أن تُقرَّأ مجتعة رغم فرادة كلّ إشكاليّة على حدة؟ إشكاليّات تُقارب واقعا متشابها ومختلفا تتحدّ فيه أضداده وتتفرق في آن؟ كيف لنا أن نبحث عن تشخيص واقع مماثل؟ واقع فيه فئان راب من هوامش المدينة يُغنّي ليحتج على مركزيّة الحقّ في الحياة، وحركة احتجاجيّة هامشيّة تعادي التهميش بفعل جماعي يلغي من ألغاه ولو كان من مسانديه. واقع فيه شباب "أولتراس" يتنبؤون بالثورة ولا تعنيهم صيرورتها، وباحثون يتفاجؤون بها فينخرطون في فعل ينشد تحقّقها! فيه مُدوّنون يناضلون في شبكة عنكبوتيّة ضدّ نظام سقط رأسه فصار كأرملة سوداء! وحملات أفقيّة في فعلها تنتشر كجذمور في بيئة احتلّتها أشجار السلطة التي لا تثمر وفئانون يجعلون الفضاء العام مكانا لرفض الواقع، الواقع برّمته، واقع فيه أساتذة غادر طباشيهم الأقسام ليحتج في الشوارع، عُمَّالً في مصانع الظلّ لا ضوء يُسلّط على نضالاتهم، مُهرّجون يجعلون البوليس يَبتسم ويعوّضون مناضلين أتعبتهم كلاسيكيّة احتجاجهم وأحزنتهم في آن! واقع ترسمه صحراء الكامور بوشائج أوليّة تنتخب فاعلين عاديّين لكن بفعل لم تعتده السلطة، واقع تُصوّره مشاهد جرّرات في جندوبة تغادر حقلا لتذهب إلى حقل آخر نمن الحقل الفلاعي إلى الحقل الاحتجاجي! وواحات جمنة التي مشاهد جرّرات في جندوبة تغادر حقلا لتذهب إلى حقل آخر نمن الحقل الفلاعي إلى الحقل الاحتجاجي! وواحات جمنة التي تحتج فيها الدقلة في عراجينها مطالبة بالحق في الأرض

47 شارع فرحات حشاد، العمارة «أ»، الطابق الثاني 1001 تونس الهاتف : 46 71 25 76 64 — الفاكس : 56 76 64 +216 71 contact@ftdes.net - Contact@ostunisie.org





